

قراءة مختصرة لكتاب : الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر

أ. الطيب بن ابراهيم *

المقدمة

لا أعتقد أن الحديث عن الاستشراق في عموميه لم يستوف من الدراسة والبحث والاهتمام من طرف المعجبين والناقدين على حد السواء، بل ما كتب عنه أكثر مما كتب عن غيره، إلا أن ذلك لا يعني غلق ملفه نهائياً، بل لازال النظر إليه من عدة زوايا مختلفة يثير الكثير من التساؤل. وإذا كان عهد الاستشراق والاستعمار واحتكارهما للساحة قد وليّ، وإن في شكلهما المباشر والسافر، فالحديث عنهما تحول إلى مادة تاريخية، فالمواضيع والأحداث التي تراجعت أو اختفت بسبب عامل الزمن وتقادمها تتحول تدريجياً إلى مادة وموضوع للتاريخ هو الذاكرة الجماعية والمرجعية الحقيقية للشعوب والأمم، منه ما هو خاص بتلك الأمة أو ذلك الشعب، ومنه ما هو

*. أستاذ وباحث بالأبيض سيد الشيخ.

مشارك فيه مع غيره، والاستشراق الفرنسي هو تاريخ مشترك بين فرنسا والشرق عامة، ومستعمراتها الشرقية خاص إن كتاب الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر، هو أول محاولة من نوعها تهتم بالاستشراق الفرنسي دون غيره خاصة في الجزائر، ولم يتناوله على إطلاقه، ولم يتوقف عند تقييمه، وكان السؤال المحوري الذي حاول الإجابة عليه هو هل وظف الاستشراق خارج إطار عمله وكيف؟ وما هي حقيقة مهامه التي قام بها؟ هل كانت مهمته علمية نزيهة بعيدة عن كل الشبهات، أم كان له علاقة ما بالاستعمار والتبشير والغزو الثقافي؟ وإجابة على هذه التساؤلات تطلب الأمر متابعة المسار العام للاستشراق الفرنسي خلال تاريخه الطويل الممتد على مسافة أكثر من عشرة قرون، بداية من القرن العاشر للميلاد وإلى غاية نهاية القرن العشرين، والذي غطى معظم مساحة العالم العربي والإسلامي، جغرافيا وتاريخيا وثقافيا واجتماعيا ودينيا وحضاريا، وعرفت هذه العلاقة تطورات كانت خاضعة لتأثيرات الظروف والمراحل التي مرت بها، وأبرز أحداثها الحروب الصليبية التي صاحبت بداية الاستشراق، والاستعمار الغربي الحديث الذي صاحب المراحل الأخيرة منه، والتي كانت فرنسا أحد إمبراطورياته، فأثرت هذه الأحداث تأثيرا قويا وموجها للمسار العام للاستشراق، وأثرت على مضمونه وموضوعه، وعلى كنهه ونوعه وحتى على إنسانه -المستشرق- وأداته وأسلوبه وغايته تناول الكتاب أكثر من مائة وعشرين مستشرقاً في مختلف الجبهات الثلاث، جبهة الاستعمار، والتبشير والغزو الثقافي، خاصة في الجزائر التي كانت متميزة عن غيرها استعماريا،

قراءة مختصرة لكتاب : الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر

وبقدر تميز استعمارها كان تميز استشراقها أيضا، ففعل ذلك التميز فعلته وترك بصماته وأثره على التاريخ والتراث والثقافة والإنسان وفكره وسلوكه ؟ إن الكتاب ركز على تعدد وتنوع المهام التي قام بها المستشرق، كونه جنديا مجندا لوطنه في جبهة قتالية متميزة لا يصلح لها غيره، إنه متعدد المهام والجبهات، فهو الأستاذ المدرس والمحاضر والباحث الأكاديمي، وهو الخبير والمنظر والمستشار، وهو السياسي والإداري والدبلوماسي، وهو الجندي والضابط والمخبر العسكري، وهو رجل الدين والمبشر، فهو أكثر من غيره يلبس لكل ميدان لباسه، ويحمل لكل جبهة سلاحها، ويخاطب كل فئة بلغتها. يحتوي الكتاب على مقدمة وخاتمة وأربعة فصول هي ؟ الاستشراق، الاستشراق الفرنسي والتبشير، الاستشراق الفرنسي والاستعمار، الاستشراق الفرنسي والغزو الثقافي والفكري، وكل فصل من الفصول الثلاثة الأخيرة مذيّل بقائمة لأبرز المستشرقين وأهم أعمالهم في ذلك الحقل.

الشرق والاستشراق

الشرق جغرافيا هو الجهة المقابلة للغرب الواقعة شرق البحر الأبيض المتوسط، واصطلاحا هو المنطقة الواقعة بين أطراف الصين شرقا إلى سواحل موريطانيا غربا، ومن العراق وتركيا شمالا إلى أندونيسيا جنوبا، إنه الشرق الذي دخل التاريخ مبكرا قبل دخول الغرب إليه، وكان منطلقا لأول الحضارات الإنسانية، ومهبطا للديانات السماوية.

فالتحديد الجغرافي للشرق ليس كافيا ولا دقيقا إذا جردناه من مادته التي تميزه والتي منحته صفة الشرق الاستشراقي وهي الاسلام، وهنا ألحق شمال إفريقيا الواقع على الضفة الجنوبية للمتوسط بالشرق وهو المقابل للغرب على الضفة الشمالية، فليبيا وتونس والجزائر والمغرب تقع في الجنوب مقابلة لنظيرتها في الشمال، إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وكلاهما في النصف الغربي جغرافيا وفلكيا، أما موريطانيا فهي أكثر غربية في موقعها الجغرافي من الغرب الأوروبي، لكنهم استشراقيا محسوبون جميعا على الشرق. فالقصد بالشرق استشراقيا هو الشرق الاسلامي بكل تراثه وموروثه، وأصبح ما هو جغرافي يلحق بما هو ثقافي، وتجاوزت حدود الشرق الاستشراقي حدود الشرق الجغرافي، فشرق الاستشراق هو هوية ثقافية ودينية واجتماعية وتاريخية وحضارية. إنه تميز شرقي يختلف عن الغرب، وهو ليس قطعة أرضية فقط أو مساحة جغرافية.

لقد مثل العرب والإسلام الشرق خلال ألف عام، وكان تأثيرهما العسكري والثقافي والحضاري السبب وراء وجود الاستشراق، ظهور الاسلام في الشرق كان صانعا للأحداث وكان الخصم المفزع للغرب، والتحدي الشرقي لأوربا، فاكتمح معالقتها في شمال إفريقيا ومصر والشام، والأندلس وصقلية وتوغل داخل فرنسا، وهو الذي كان وراء إعادة القدس وفتح القسطنطينية ومحاصرة جيوش العثمانيين لفينا في قلب أوربا. وهو الذي شنت عليه الحرب الصليبية التي جند لها الغرب عدده وعدته.

قراءة مختصرة لكتاب : الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر

والاستشراق ترجمة عربية لكلمة Orientalisme التي عرفت في أوروبا في بداية القرن 19م، والتي أدرجت رسميا في قاموس الأكاديمية الفرنسية سنة 1838، والمصطلح يعني حركة ثقافية عرفت في أوروبا منذ القرن 12م وإن كان لهذه الحركة جذورها قبل ذلك، فالاستشراق هو ما يفكر فيه وما يقال عن الشرق من طرف الغربيين، وهو ميدان دراسي قائم على وحدة جغرافية وثقافية ودينية وعرقية اسمها الشرق، إنه حركة فكرية وثقافية تستخدم للدلالة على الكتابات البحثية في مختلف أنواع العلوم والمعارف الغربية حول الشرق، واهتمامها بفن الرسم الغربي القائم على استلهام الشرق. لقد مر الاستشراق خلال أكثر من عشرة قرون بثلاث مراحل رئيسية :

- المرحلة الأولى : تمثلت في الاحتكاك المباشر بالعالم الإسلامي والأخذ منه بأسباب حضارته.

- المرحلة الثانية : وكانت مصاحبة للحروب الصليبية، وتعاملت مع الشرق من خلال النصوص والأحكام المسبقة، وكانت تحمل مشروعا غربيا عسكريا ودينيا.

- المرحلة الثالثة : وهي مرحلة الثورة الصناعية وما أعقبها من توسع استعماري غربي على حساب الشرق، فتطور الاستشراق وبنى مؤسساته وهياكله وبلغ أوجه.

كان الاستشراق يحمل زادا عقائديا أيديولوجيا استجابة للثقافة التي أنتجته أكثر مما استجاب لموضوعه المزعوم، وكان يسير مواكبا للظروف التاريخية التي عرفها الغرب، فهو وجه من أوجه فرض أوربا نفسها على الشرق ثقافيا وعسكريا وصناعيا وحضاريا.

إن الاستشراق ظاهرة ثقافية تاريخية استثنائية غير طبيعية في حالتها وكمها ونوعها ومساحتها، إنه علم ومعرفة شرقية بالتبني، يفتقد للشرعية والمصادقية التي تتميز بها كل العلوم الانسانية الخاصة بكل أمة، فالتاريخ والأدب والفلسفة والدين كلها علوم ومعارف عادية وطبيعية في حياة كل الشعوب والأمم، لكن الاستشراق ليس علما كهذه العلوم مصاحبا لكل الشعوب في كل العصور، بل كان استثنائيا ظرفيا أفرزته ظروف وعوامل تاريخية وحضارية، فوجوده وزواله مرهون ومرتبطة بتلك الظروف.

إن كل عناصر الاستشراق كانت غير متجانسة مع بعضها البعض، فتحت مظلة الاستشراق فرضت الوصاية الثقافية وإشتغل الغربي بدراسة الشرقي، والمسيحي بدراسة المسلم، والآري بغير الآري، والمتحضر بالمتخلف والمستعمر بالمستعمر، والفوقي بالدوني، والنقيض بنقيضه، وغاب المعني عن حاجته، وفقد عنصر الشرعية والانتماء والمصادقية سواء للمكان أو للموضوع، أو للإنسان أو للتاريخ.

وإلى جانب ذلك طرحت عدة أسئلة حول حقيقة الاستشراق، هل هو وسيلة أم غاية هل هو علم أم أيديولوجية، ما هي غاياته وأهدافه، لماذا

تزعمته الدولتان الاستعماريتان فرنسا وبريطانيا ؟ هل تخلص الاستشراق من كل موروثه الثقافي اتجاه الشرق أم كانت أحكامه ونتائجه موضوعية ؟ وليس من السهل تجاوز هذه الأسئلة وغيرها لننظر للاستشراق نظرة البريء.

ورغم وحدة غربية الاستشراق وشرقية وجهته، فإنه مع ذلك يختلف باختلاف المكان والزمان، فإستشراق عصور الحروب الصليبية يختلف عن استشراق عصر السلم والحوار بين الثقافات والحضارات، واستشراق الدول الاستعمارية يختلف عن استشراق الدول غير الاستعمارية. وإذا كان الاستشراق في عمومته يمثل تفوقا ووصاية غربية على الشرق، فإن فرنسا لم تكتف بسيطرة ما هو عام حتى وإن كان غريبا أو أوروبا، وعملت جاهدة على أن تحول هذا العالم إلى خاص، ليصبح أكثر خصوصية لفرنسا لخدمة لغتها وكاثوليكيته ومشاريعها السياسية والاستعمارية والثقافية، ووظفته إلى أبعد الحدود لتجعل منه استشراقا فرنسيا متطرفا استعماريا وثقافيا بعد مسابقتها لتوجهات وضغوطات سياسة دولته، فكان الاستشراق الفرنسي مرآة عاكسة لموروث فرنسا التاريخي في صراعها مع الشرق منذ شارل مارتل وحفيده شارلمان إلى أيام الإمبراطورية الفرنسية الاستعمارية، فكان الاستشراق الفرنسي يعكس ذلك الموروث الثقافي وتلك الأحلام الاستعمارية، خاصة في الجزائر التي حاول الاستعمار أن يجعل منها فرنسا فيما وراء البحار، فعمل على فرنستها والقضاء على شرقيتها، وكان عقلها في تنفيذ ذلك المستشرق العارف بالشرق الخبير بشؤونه.

الاستشراق الفرنسي والتبشير

إذا بدأنا بطرح السؤال التالي : هل من علاقة ما بين الاستشراق والتبشير، أو ما بين الجامعة والكنيسة ؟ قد يظهر من خلال هذا التساؤل أنه طرح بطريقة تبعد نوعاً ما العلاقة المباشرة بينهما فالاستشراق نشاط علمي وثقافي، والتبشير نشاط ديني، والجامعة مؤسسة علمية، والكنيسة مؤسسة دينية، ولكل من المؤسسات دورها الاجتماعي وأهدافها ورجالها، لكن لو طرح السؤال بصيغة أخرى أكثر وضوحاً ودقة حول العلاقة بينهما وهو كالاتي : هل يمكن للمبشر أن يكون مستشرقاً، وللمستشرق أن يكون مبشراً ؟ وهل عرف الاستشراق الفرنسي مبشرين مستشرقين أو مستشرقين مبشرين ؟ ومن خلال الإجابة على هذه الأسئلة تظهر العلاقة القائمة بين الجامعة والكنيسة وبين الاستشراق والتبشير الفرنسيين.

أعتقد أننا لا نشك في وجود دور مشترك بين الاستشراق والتبشير الفرنسيين بطريقة أو بأخرى، ولكن الشك يكون في انعام علاقة ما بينهما، فالطلائع الأولى للمستشرقين الفرنسيين كانت طلائع رجال دين ابتداءً بالمشرك الفرنسي جرير أوراليك في القرن العاشر للميلاد وماتلاه من قوافل رجال الدين في القرون اللاحقة، وكان هؤلاء المستشرقون المبشرون يتعاونون فيما بينهم بتفاوت ما بين مستشرق متعصب إلى مستشرق يخفي تبشيريته بذكاء وحنكة إلى مبشر يعمل في حدود أضعف الإيمان. وعموماً فالمستشرقون المبشرون الفرنسيون ينقسمون إلى فئتين رئيسيتين :

قراءة مختصرة لكتاب : الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر

- فئة المستشرقين المبشرين الذين كانوا منضوين ومنتبين إلى جمعيات ومؤسسات دينية تبشيرية من قساوسة وآباء، وهم الذين يمثلون الأغلبية.

- فئة المستشرقين المبشرين الذين لم يكونوا منتبين إلى أي جمعيات دينية ولم يكونوا من الرهبان، ومع ذلك قاموا بدور فعال في مجال التبشير، وقدموا له خدمات لم يقدمها له حتى المبشرون المباشرون في المؤسسات التبشيرية.

فالدین يعتبر من أبرز العوامل الرئيسية الموجهة لثقافات الشعوب والأمم وتاريخها، وهو من أبرز عوامل الصراع في التاريخ الانساني، فإن غاب العلماء والمثقفون، فمن يشغل ويبشر به ويدافع عنه أمام من يعتقد أنهم خصومه، خاصة في حالة كحالة فرنسا ومستشرقها، فرنسا صاحبة الوصاية والحماية التاريخية على المسيحية، وبصفة أخص عندما يصبح الأمر هو مواجهة خصم عنيد إفتك من الغرب المسيحي حصونا وقلاعاً في شمال إفريقيا والشام ومصر والعراق وغيرها، وحتى في أوروبا معقل المسيحية طوقها غرباً عبر الأندلس وشرقاً عبر القسطنطينية والبلقان ليواصل زحفه إلى أطراف الصين وأندونيسيا شرقاً، وإذا كان هذا التاريخ لا يغيب عن أذهان الغربيين فهل يغيب عن أذهان المبشرين والمستشرقين الفرنسيين؟! .

إن الفرنسيين لم ينطلقوا في ذلك من فراغ، إذ كانت لهم مبرراتهم التاريخية، فهم الذين كانوا على خط المواجهة مع الشرق في الأندلس غرباً وفي القدس شرقاً، وفرنسا هي التي كان مواطنها البابا أوربينو

الثاني أول من حرض ودعا لشن الحرب الصليبية، وفرنسا هي التي تزعم ملوكها وأمرائها وقادة جيوشها الحروب الصليبية، فهي زعيمة هذه الحروب فكرة ومنشأ ومنطلقا وقيادة ورعاية دينية وعسكرية، وهي صاحبة الزعامة الكاثوليكية البابوية، فكان لهذه الخلفية التاريخية بعض مبررات تبشيرية استشرافها، خاصة بعد انعقاد مجمع فينا الكنسي سنة 1342-1313 الذي كان بمثابة فتح باب الاستشراف على مصراعيه بقرار المؤسسة الدينية، وكان بمثابة البداية الرسمية لمرحلة جديدة أنجبت آلاف المستشرقين المبشرين الذين فتحت لهم المنابر العلمية في أعرق الجامعات الأوروبية، فكانت أهداف عملهم ليس لمجرد البحث العلمي، بل كان الهدف تحقيق مشروع تبشيري بالنصرانية كما يقول غارودي.

إن التبشير سبق الاستشراف، وجاء الاستشراف، ليصبح من أهم وسائل التبشير وبدأ التزاوج بينهما مبكرا منذ أن أصبح أول مستشرق فرنسي بابا للكنيسة الكاثوليكية ومنذ ذلك إلى غاية القرن العشرين كان التحالف بينهما متواصلا معلنا ومستترا ولم يستطع التخلص منه حتى كبار مستشرقي فرنسا وأعمدة استشرافها، فشيخ المستشرقين الفرنسيين في القرن التاسع عشر دي ساسي صاحب القدرة الفائقة على الإخفاء والإظهار، كان قد وفق بين طريقة العامل وطريقة المعلم للكتاب المقدس على حسب وصف إدوارد سعيد له، أما مواطنه ما سينيون أكبر مستشرقي فرنسا في القرن

العشرين والذي حجّ للقدس 18 مرة وكان قاب قوسين من أن يصبح خليفة لشارل دي فوكو في صحراء الجزائر قبل أن ينصحه مستشاره بالتخلي عن الفكرة وأن يقدم على الزواج فقد قال عنه أحد الدارسين له : إن من الخطأ إن لم نقل من العبث أن نحاول التمييز في أعماق ماسينيون بين المسيحي وبين العالم !

كان إنتاج المستشرقين الفرنسيين في عمومهم مفعم بزخم من المشاعر الدينية، خاصة عندما يتعلق الأمر بالشرق، وقد لا تختف هذه المشاعر حتى وإن حاول إخفاءها من أراد ذلك، وإن كان القليل من حاول إخفاءها.

وجد التبشير قبل الاستشراق والاستعمار وتحالف معهما عند مجيئهما، وبعد رحيلهما لازالت الحركة التبشيرية تسير على قدم وساق، فالتبشير لا يشيخ يتلون بلون كل عصر ويتحالف مع كل جديد ومستحدث، يعمل في الحرب والسلام ولا يرحل برحيل الاستعمار، ولا توقف بتوقف الحرب!

تعرضنا في نهاية هذا الفصل لحوالي أربعين مستشرقاً مبشراً من القساوسة والآباء الذين اهتموا بثقافة الشرق عامة والدينية منه خاصة، فاهتموا بالقرآن وتفسيره والحديث وعلومه، والسيرة النبوية والعقدية والشريعة والفتوحات الإسلامية، والفرق الإسلامية، والمذاهب الإسلامية، والخلافة الإسلامية، والنظم الإسلامية، والتاريخ الإسلامي، والجهاد والصحابة، والتصوف... الخ.

الاستشراق الفرنسي والاستعمار

إن الاستشراق كان أحد العوامل التي أوجدت القابلية للاستعمار عند العرب، وليس عند الشرقيين كما قصد ابن نبي، فالاستشراق ظهر وانتشرت ثقافته التي تحط من قيمة الشرقيين وتنظر لهم نظرة دونية، وتهتم بالشرق وثرواته وموارده وأهميته الاستراتيجية جغرافيا واقتصاديا وعسكريا ودينيا وثقافيا، والسيطرة عليه سيطرة على العالم، وتمت دراسة مجتمعاته دراسة تشريحية، وكيف يتم التعامل معها ثقافيا وسياسيا وعسكريا ونفسيا، وما هي نقاط قوتها وضعفها، هذه العلوم والمعارف المتوفرة عن الشرق وكيفية التعامل معه فتحت شهية الغرب في السيطرة عليه، والتنبيه لأهمية كنوزه النادرة والمتنوعة، كل ذلك أغرى الغرب للتسابق نحو الشرق، خاصة الدول الاستعمارية منه، بالإضافة لذلك الصراع التاريخي الجغرافي بين الشرق والغرب، كل هذا جعل الاستشراق يصبح رافدا من روافد الاستعمار الغربي للشرق.

إن الاستعمار هو منتج ثقافي قبل أن يكون احتلالا عسكريا، فالاستعمار هو ثقافة تطبيقية وممارسات ميدانية لثقافة ولأفكار نظرية أنتجها الغرب عموما والدول الاستعمارية خصوصا، فدعا لذلك صراحة كثير من المثقفين والمفكرين من المستشرقين وغير المستشرقين الفرنسيين الذين كانت كتاباتهم تحط من الشعوب الشرقية غير المؤهلة لحكم نفسها والتي يجب أن توضع تحت أي نوع من أنواع الوصاية أو الحماية أو

الانتداب أو أي كانت التسمية، فالأهم هو التحكم فيها وفي مواردها وفي إرادتها لصالح الغرب، وأن الوقت مناسب لترويض هذا المارد وتقليم أظافره، وعندما شنت الحملات الاستعمارية كان المستشرقون حاضرين فيها، بل كانوا في طليعة جيوش الاحتلال، وتجاوز عددهم المصاحب لحملة نابليون على مصر مائة مستشرق وكان زعيمهم في تلك الحملة كبير مستشاري فرنسا وأوروبا في عصره سلفستر دي ساسي مترجم بيان الجيش الفرنسي للجزائريين أثناء غزوها، وهو صاحب كثير من التوصيات والتوجيهات لجيوش الاحتلال الفرنسي، فكافأته حكومته بالجوائز الثمينة والأوسمة الرفيعة التي لم ينلها حتى كثير من العسكريين أوبعد وصول نابليون إلى مصر على متن سفينته المسماة -الشرق- خاطب مستقبله المصريين بمقولته المشهورة - نحن المسلمون الحقيقيون - وكان ذلك من وحي المستشرقين!

لقد كان المستشرقون الفرنسيون في طليعة قوافل جيوش الاحتلال بوجودهم الشخصي بحضورهم المباشر، ناهيك عن لم يحضروا كجنود مجندين مباشرة، ولكن تقاريرهم عن الشرق كانت حاضرة، ومن غير الطبيعي أن نعتقد أن خبراء الشرق ييخلون بخيراتهم وخلاصة دراستهم الاستشراقية عن الاستعمار في الوقت الذي كان في أمس الحاجة إليها، كما لا يمكن أن ييخل الاستعمار بالإميازات والجوائز إليهم، والاعتراف بالجميل لأساتذته المستشرقين الذين أفادوا واستفادوا بعد ما عادت عوائد

الاستعمار وغنائمه على خزائن بلدانهم، فأجزل لهم العطاء وأغدقت عليهم الأموال الطائلة، وقدمت لهم التسهيلات وفتحت أمامهم المكتبات وسلمت لهم الكتب والمخطوطات، وسهلت لهم عملية التنقل والترحال والوصول إلى مصادر المعلومات ومضاها.

وبالمقابل كان ما قدمه الاستشراق الفرنسي للاستعمار من خدمات لا يقدر بثمن، فهي عظمة من حيث نوعيتها وكميتها وتنوعها عن الشرق جغرافيا وتاريخيا وثقافيا ودينيا واثنيا وعسكريا اجتماعيا واقتصاديا وسلوكيا ونفسيا، هذه التقارير العلمية الجاهزة كان الاستعمار في أمس الحاجة لها، وهي التي سهّلت من مهمته في التعامل والتحكم في الشرق والسيطرة عليه من منطلق اعرف خصمك، لقد شارك في تحرير هذه التقارير والدراسات من المستشرقين من قدمها عن قصد ومن قدمها عن غير قصد، ناهيك عن المستشرقين الذين كانوا جنودا مجندين في صفوف جيوش الاحتلال وإدارته الناطقين باسمه، وكان منهم الوزراء والسفراء والقناصل، وكان منهم الضباط والمستشارون في الجيش من أدنى الرتب إلى أعلاها. ومن أبرز المستشرقين الفرنسيين المتعاونين مع الاستعمار، بالإضافة إلى كبير مستشريقي عصره دي ساسي، هناك لويس ماسينيون كبير مستشريقي فرنسا في القرن العشرين، والذي كان موضع ثقة حكومته عامة ووزارة الخارجية خاصة التي اتخذته مستشارا لها في الشؤون الشرقية ومستعمراتها منذ سنة 1916، وكان مستشار مندوب فرنسا جورج بيدو في اتفاقية سايكس بيكو سنة 1916، وهو الذي كان واقفا إلى

قراءة مختصرة لكتاب : الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر

جانب المستشرق البريطاني الشهير لورانس أثناء استقبالهما الجنرال اللبني عند دخوله لمدينة القدس يوم 11 ديسمبر 1917 بعد سقوطها، والمستشرق دي بيليه كان عسكريا برتبة لواء، من أهم أعماله قلعة بني حمادة، والمستشرق بلانتي الموظف بوزارة الخارجية، من أعماله مراسلات ولاية الجزائر مع بلاط فرنسا، ورينيه باسي الذي ترأس مؤتمر المستشرقين الرابع عشر بالجزائر قبل أن يعين قنصلا بها، وفوربيجي الذي كان عسكريا برتبة لواء في الجيش الفرنسي، والمستشرق آزان فال وكان عسكريا برتبة لواء كتب عن الأمير عبد القادر، وملنجوكان مستشقا عسكريا برتبة عقيد، والمقام لا يتسع لذكر أكثر من ذلك وهذا الفصل من الكتاب مذيّل بنبذة تاريخية عن حوالي أربعين مستشقا فرنسيا متعاونوا مع الاستعمار وإدارته بطريقة أو بأخرى.

وإذا كان المستشرق المبشر يبرر عمله بأنه لا يستطيع الخروج من جلدته والتخلص من دينيته ومسيحيته وثقافته، فيما يبرر المستشرق استعماريته وامبريالية استشراقه الجامحة، فهل هو كذلك لا يستطيع الخروج من جلدته واستعماريته وهو استعماري بالطبع ؟ !

الاستشراق الفرنسي والغزو الثقافي

إن موضوع الاستشراق الفرنسي والغزو الثقافي والفكري هو في الحقيقة تنويع ونتيجة حتمية ظاهرة الاستشراق كظاهرة ثقافية غربية غازية، ولموجة الاستعمار وجهود التبشير والاستيطان، خاصة في الجزائر. فالاستشراق لم

ينشغل بغير الثقافة وكل عمله وإنتاجه مادة ثقافية ورجاله رجال ثقافة ومؤسساته ثقافية، فعلاقة المستشرق بالغزو الثقافي علاقة توظيفية كعلاقة الجندي بسلاحه، فكل يستعمل سلاحه في ميدانه، فلا نستغرب من استعمال العسكري لسلاحه ولا نستغرب من استعمال المستشرق لثقافته.

لقد اتفق المستشرقون والعسكريون الفرنسيون على الدور الاستراتيجي للغزو الثقافي وأهميته للتحكم في مستعمراتهم، ولتندمج في فرنسا نهائيا، فإن لم تندمج فتبقى كويكبات تدور في فلك النجم الكبير ولن تنفصل عنه وذلك بفضل شبكة الاصطياد الثقافية، فهذا لوشاتلييه أوصى حكومته بأن تركز عملها في الشرق قبل كل شيء على قواعد التربية العقلية، وهو نفس ما أوصى به أحد جنرالات فرنسا قائلًا : إن الأفكار هي التي سوف تضمن لنا السيطرة، والغزو لا يكون عسكريا فقط، قد يكون كذلك، وقد يكون اقتصاديا وثقافيا وإعلاميا... الخ.

إن ثقافة الاستشراق التي أنتجها واشتغل بها المستشرقون هي أكثر العلوم والمعارف قابلية وعرضة للغزو الثقافي والفكري بسبب طبيعة هذه العلوم النظرية غير المخبرية التي تعتمد فيها على الأخذ بالرأي والاختلاف في وجهة النظر، وأخذها على أكثر من وجه في التفسير والتأويل حسب اختلاف التيارات الفكرية والإيديولوجية وحسب المصالح والغايات وحسب اختلاف الجهات والثقافات والحضارات والانتماءات، وعبر هذه الساحة الواسعة تدب حركة الغزو الثقافي.

فجبهة الغزو الثقافي هي أخطر من الجبهتين السابقتين، جبهة التبشير جبهة الاستعمار، فهي أعقد الجبهات أسلوبا، وأفسحها ميدانا، وأخفقها حركة، وسلاحها أكثر تنوعا، ورجالها لا يتميزون بوظيفة مباشرة خاصة بهم، ولا بلباس يميزهم كالعسكريين ورجال الدين، ولا يوجد لهذا الغزو مؤسساته الرسمية الخاصة به كما هو حال المؤسسات العسكرية والدينية : الثكنة والكنيسة، ومع ذلك فالمؤسسات الدينية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية كلها في خدمة بطريقة أو بأخرى.

إن الغزو الثقافي الفرنسي فرع من الاستشراق الغربي، فذاك غزو خاص والآخر غزو عام، فالغزو الثقافي الفرنسي هو نقلة نوعية من العام إلى الخاص، فالاستشراق الغربي غزو عام لا يخدم مصالح دولة محددة أو استعمار معين، فهو غزو حضارة وثقافة غربية وليس غزو دولة، أما الخاص فهدفه خدمة السياسة الفرنسية تحديدا دون غيرها وخدمة مصالحها الخاصة بها، ففرنسا لها لغتها الخاصة بها، ولها مذهبها الديني الذي تترعمه وأسلوبها وثقافتها التي تميزها عن غيرها، وسياستها هي الحفاظ على هذه العناصر المكونة للشخصية الفرنسية ونشرها على حساب مستعمراتها الشرقية خاصة وفي الجزائر على وجه أخص، حيث قررت فرنسا نزعها من شرقها وإحاقها بغربها، ونزعها من جزائريتها لفرنستها، واتخاذ قرار بهذه الجرأة والخطورة يحتاج إلى جهود وتضامن جيوش كل الجبهات التبشيرية والاستعمارية والثقافية وعلى رأسها المستشرقون، فالمستشرقون

أعلم من غيرهم بحالة الشرق وما آل إليه، وبما قاله أبناء الشرق عن أنفسهم وعن مأساتهم، فهم قبل الاستعمار أصيبوا بالقابلية للاستعمار، وهي حالة من الانهيار النفسي والمعنوي وفقدان أي ثقة بالنفس، ووقع الاحتلال ونتج عن حالته ولع المغلوب بتقليد الغالب، وهنا أصبحت ساحة الصراع ليس الأرض الجغرافية بل النفس البشرية، وكان المستشرقون هم خبراء الشرق المحنكين في كيفية التعامل معه شعوبا وقبائل وأفرادا.

كان الغزو الثقافي الفرنسي ولازال يهدف إلى تكوين مواطن فرنسي ثقافيا وليس إثنيا أو جغرافيا، يدين بالولاء لفرنسا، ونجاحها في ذلك تحقق به ما لم يحققه لها نجاحها العسكري، ففي حالة انتصارها الثقافي يصبح الشخص المغزو جنديا مجندا لها، وفي حالة انتصارها العسكري يصبح الشخص المغزو مجندا ضدها لمقاومتها، والفرق بين الحالتين كالفرق بين من يرى أنه غير فرنسي حتى وهو يعيش داخل فرنسا، وغير الفرنسي الذي تعيش فرنسا داخله حتى وإن كان يعيش خارجها، فهذا الأخير لا يتخلص من غزوه حيثما حل وارتحل، بينما صاحب الغزو العسكري متحرر حتى وهو داخل زنزائته وبين قيوده، فهو متحرر فكريا وثقافيا وسياسيا، ولاؤه لوطنه حيثما حل وارتحل داخل أرض الاحتلال أو خارجها.

إن الغزو الثقافي والفكري هو أخطر من الغزو العسكري، فالشعوب بعد غزوها العسكري قد يكون انبعاثها من جديد متحديا كألمانيا

قراءة مختصرة لكتاب : الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر

واليابان، ولكن بعد غزوها الثقافي تندثر، لأن الغزو الثقافي والفكري هو نوع من البناء الاستيطاني الذي لا يبنى كالمستوطنات السكنية على المساحات الطبيعية والأراضي الجغرافية، بل استيطان ثقافي يبنى داخل النفس البشرية، إن بنائه يتم داخل الإنسان، فهو غزو داخلي يتحصن داخل الإنسان، ولا يمكن التخلص منه ولو بعملية جراحية، وزرعه أخطر من زرع ألغام الاستعمار التي تقتل وتبتر أوتشوه الأشخاص بانفجارها، فالغزو الثقافي يقتل ويشوه الأمم والشعوب ويحاول بتر شخصيتها من التاريخ.

إن الاستشراق الفرنسي وظف ضد الشرق وثقافته وشعوبه، وبشر بالثقافة الفرنسية ومثلها وقيمها والولاء لدولتها، وكان يهدف إلى الترع والاحتواء وملء الفراغ، وكانت سياسة الاحتواء الثقافي التي انتهجتها فرنسا نحو مستعمراتها الشرقية أخطر من سياسة نهب ثروات وموارد مستعمراتها، فنهب وتدمير الثروات والموارد يؤدي إلى فقر الشعوب، والتدمير الثقافي والفكري يؤدي إلى التشويه والذوبان وفقدان الشخصية. إن النص الاستشراقي ليس هو مجموعة من الألفاظ والحروف جوفاء لا تعبر عن شيء، إنه يختلف كتلة وكثافة وقوة إشارية، وكل مستشرق لابد أنه 'يعرف كيف يمسك بالشرق، وكيف يقترب منه وكيف يتجنب إهزاه أمام عظمتة وكيف يتموضع في نصه، إنه صراع عنيف ومعرفة دقيقة على مساحة معدومة لا يتسع لها إلا نص استشراقي.

فالخطاب الإستشراقي هو إعادة بناء للنص ليس داخل ثقافة الأصلية بل خارجها، وهنا يمارس صاحب النص المستشرق حقه في الممارسة والسلطة والتوجيه، ومع هذا ليس الغاية هي التوقف عند النص فقط ولا عند مضمونه الإيديولوجي ولا محتواه المعرفي، بل ما يهمنا أكثر هو كونه يحمل علامات العقل الذي ينتجه حسب تعبير الجابري، وكان رائد ذلك العمل الجد الأول للاستشراق العلمي في فرنسا وأوروبا كلها سلفستر دي ساسي، فموضوعات عمله كانت مختارة لا عفوية مرتبة بعناية، وكان يتمتع بأمثلة تمتلك القوة الإشارية للدلالة على الشرق، وكان من الذكاء بحيث أنه لم يكن يسمح لأدائه وممارساته بالبقاء دون حجج تدعمها، ومثله كذلك خلفه أرنست رينان وماسينيون وغيرهم.

فرنسا تراهن على الاستشراق

كانت فرنسا تراهن على الإستشراق في سياساتها الثقافية خاصة في عهد إمبراطورياتها الإستعمارية، وإذا قارنا في هذه المرحلة بينها وبين غريمته بريطانيا العظمى التي لا تغيب الشمس عن مستعمراتها في كل القارات، فنسبة مستعمرات بريطانيا العربية بلغت 48% مقارنة بنظيرتها الفرنسية البالغة نسبة مستعمراتها العربية 34% بينما مستعمراتها في العالم الإسلامي خاصة والشرق عامة، كانت نسبة البريطانيين أضعاف نسبة الفرنسيين.

وإذا كانت مستعمرات بريطانيا الشرقية أضعاف المستعمرات الفرنسية، فذلك لم يكن ينطبق على إمبراطورياتهما الإستشراقيتين، إذ كان لفرنسا

قراءة مختصرة لكتاب : الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر

إمبراطورية استشرافية فاقت بها نظيرتها البريطانية، وسبقتهما في عدة مجالات، فكانت فرنسا تحتل المرتبة الأولى متبوعة ببريطانيا في المرتبة الثانية، مقارنة بمستعمراتها الشرقية ومجهودهما الإستشرافية. وتظهر مراهنة فرنسا على الاستشراق بعدد مستشرقينها الذين يعدون بالملئات وإن كان نظراؤهم البريطانيون لا يقلون عنهم عددا ويمتازون عنهم بالذكاء والدهاء والمناورة، فأقدم مستشرق متفق على تاريخه كان فرنسيا، وأول جمعية استشرافية ظهرت كانت الجمعية الآسيوية الفرنسية، تأسست سنة 1822 لتلتحق بها غريمته بريطانيا وتؤسس جمعيتها في السنة الموالية 1823، ثم الجمعية الأمريكية 1843 والجمعية الألمانية 1845، وكانت فرنسا السباقة لفكرة انعقاد مؤتمرات دولية للمستشرقين، وبها انعقد أول مؤتمر للمستشرقين بباريس سنة 1873 التحقت بها منافستها بريطانيا بعقد المؤتمر الثاني في السنة الموالية 1874، وكانت عاصمة فرنسا أكثر العواصم الأوروبية إحتضانا لمؤتمرات المستشرقين الدولية، إذ عقد بها أربع مؤتمرات، وكانت منافستها بريطانيا احتضنت عاصمتها لندن مؤتمرين فقط، بينما دول أوربية أخرى عريقة كإسبانيا والبرتغال لم ينعقد بها ولو مؤتمر واحدا، وأن فرنسا واصلت عقد المؤتمرات حتى في مستعمراتها كمؤتمر المستشرقين بالجزائر ولم يتحقق لبريطانيا ذلك، بالإضافة إلى ما بذلته فرنسا من جهود في تأسيس المكتبات وكراسي اللغات الشرقية والدوريات الاستشرافية التي كانت بالعشرات.

فكل هذا سبق والتفوق الاستشراقي الفرنسي على نظيره البريطاني يعكس سياسة فرنسا الثقافية واتخاذها سلاحا استراتيجيا في مواجهة مستعمراتها عامة والشرقية خاصة والجزائر على وجه أخص، فأولتها كل العناية، وبذلك كانت فرنسا عاصمة للاستشراق فأمها الطلبة الشرقيون من شمال إفريقيا ومصر والشام والعراق.

النموذج الجزائري

كان الاستعمار الفرنسي يتميز عن غيره بطابعه الثقافي عامة وفي الجزائر على وجه أخص حيث مثلت نموذجا للحرب الشرسة التي عرفتھا الجبهة الثقافية، والتي استعملت فيها فرنسا كل أنواع الأسلحة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والنفسية وأبشع أساليب الترغيب والترهيب، والهدف من ذلك كله هو ثلاثي النسخ والمسخ والفسخ كما قال مولود قاسم، وهو فرنسة الجزائر والتخلص من أي جزائر غير فرنسية وكان المستشرقون الفرنسيون وراء الهندسة التطبيقية لهذه الأسلحة وأساليب تنفيذها. والجزائر الدولة الوحيدة إفريقيا وعربيا وإسلاميا والمستعمرة الفرنسية الوحيدة التي انعقد بها مؤتمر للمستشرقين ثم تلاه مؤتمر للمبشرين، وأصدق من عبر عن هذه السياسة الكاتب الفرنسي "أو جست برنار" بقوله : إننا لم نحضر للجزائر لإقرار الأمن بل لنشر الحضارة واللغة والأفكار الفرنسية وليست الجزائر مستعمرة كالهند الصينية ولا هي دومنيون مثل كندا ولكنها جزء من فرنسا كما

قراءة مختصرة لكتاب : الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر

كانت أيام روما، إننا نريد أن نجعل منها جنسا يندمج فينا عن طريق اللغة والعادات... الخ

اعتمدت فرنسا في تنفيذ سياستها الثقافية على عدة عوامل أبرزها نشر اللغة والدين والسلوك والعادات والتقاليد الفرنسية، بعد محاربتها لنظيراتها الجزائرية، وجندت لذلك المدرسة والإدارة والكنيسة، وكذلك الأعداد الكبيرة من المستوطنين الذين كانوا بمثابة مدارس متحركة في الهواء الطلق تتعامل مع جميع شرائح المجتمع وتغزوه عسكريا وثقافيا واجتماعيا واقتصاديا وأخلاقيا، وتحكموا في الأرزاق والأعناق.

وفي الجانب الآخر كانت عجلة الهدم تجري على قدم وساق متمثلة في محاربة مقومات الشخصية الوطنية الجزائرية من لغة ودين وعادات، بالإضافة لنشر ثقافة تمزيق الوحدة الوطنية والعزف على أوتار التركة العرقية والعنصرية والإقليمية لتحرك التغيرات القومية والقبلية والإقليمية والطائفية، فاهتموا بالفرعونية والكردية والعلوية والدرزية والمارونية والبربرية..... الخ.

وفي الجزائر في إطار هذه السياسة لم يهتم المستشرقون الفرنسيون بعظمة تاريخ وأجداد الأمازيغ في الحضارة الإسلامية من علماء وشعراء وفلاسفة ومفكرين وفقهاء وقادة جيوش وفاتحين ومؤسسي دول، وتأثيرهم في الحضارة الإسلامية، بل على نقيض ذلك كان هجهم، فكتب هنري باسي التأثيرات الفينيقية لدى البربر وكتب جراشان الرقيق المسيحي

ببلاد البربر، وسجاد البربر، فماذا كان يريد الاستشراق الفرنسي من وراء ذلك ؟ ولماذا كانت هذه المادة العلمية حكرا على الاستشراق الفرنسي دون غيره، هل لعلمية هذه المادة أم لسياستها !؟ وماذا لم تطرح هذه المواضيع خلال القرون الثمانية الأولى من الاستشراق وطرحت تحديدا أثناء الاحتلال الفرنسي لشمال إفريقيا في القرنين الأخيرين ! ؟

وخلاصة القول، أعتقد أن الاستشراق والتبشير والاستعمار والغزو الثقافي، ما هي في الحقيقة إلا أصابع ليد واحدة امتدت إلى الشرق، وأن صاحب اليد هو من يتحكم في حركة يده وفي تحديد اتجاهها وهدفها، وهو الذي يعرف متى يستعمل أصابع يده كلها أو بعضها حسب حاجته لها في المكان والزمان.

هذه خلاصة كتاب الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر، الذي صدر في شهر ديسمبر 2004 م. عن دار المنابع بالجزائر العاصمة بمناسبة الذكرى الخمسين للثورة التحريرية وكان إهداءه لشهداء الجزائر في الجبهات الثلاث : العسكرية والدينية والثقافية.